

الحسن البصري

حياته ، وصلته بالحكام

الأستاذ الدكتور محمد صالح ببيوي

نسبه ومولده : هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار شيخ الإسلام البصري .
ويلاحظ في هذا التعريف أنه كان يلقب بشيخ الإسلام ، ويكنى بأبي سعيد (١).

أما بالنسبة لوالده ، فتكاد كلمة الباحثين تجمع على أن اسمه « يسار » ويسار هذا — كما ذكر صاحب فتوح البلدان — كان ينادى قبل الإسلام بـ « فيروز » وكان من سبي « ميسان » — أسفل البصرة بالعراق — سباه الأمير « المغيرة بن شعبة » حينما افتتحها في عهد أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » ، وقد صار بعد السبي مولى للصحابي الجليل « زيد بن ثابت » .

(١) هذا ما رواه الحافظ « الذهبي » في « تذكرة الحفاظ » ؛ أما غيره كالناوي في « الكواكب » فكان يقصره على اسم « الحسن البصري » ؛ ومنهم من كان يوافق « الذهبي » على الإسم والكنية ، ويترك اللقب ، كالبخاري في « التاريخ الكبير » فيقول : « الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد البصري » ؛ ومنهم من كان يلقبه بإمام أهل البصرة ، كابن العماد الحنبلي في « شذرات الذهب » .

بل قال بعض العلماء : إذا ذكرت كلمة « الحسن » في كتب التفسير والحديث ، والفقه ، والرقائق . . . فإنها تنصرف — غالباً — إلى « الحسن البصري » صاحب هذه الترجمة .

أقول هذا ، دفعاً لما يحدث من التشابه بينه وبين آخرين يشابهونه في الإسم ، فهناك من يعتقد بأنه المراد بالحسن البصري المذكور في كتاب « الف ليلة وليلة » وليس بصحيح فذاك اسمه : حسن الصائغ البصري .
وهناك من يعتقد بأنه صاحب كتاب « أدب الدنيا والدين » وهو غير صحيح ، فصاحبه هو « أبو الحسن البصري الماوردي » مؤلف « الأحكام السلطانية » وغيرها .

وأُمه « خيرة » وهي من السبايا أيضاً صارت بعد ذلك مولاة لأُم سلمة زوج النبي ﷺ .

وفي هذا البيت النبوي الكريم كانت ولادة الحسن سنة ٢١ هـ الموافق سنة ٦٤١ م ، هذا ما عليه جمهور المحققين من علماء التراجم والطبقات .

بيئته وتأثيرها فيه : لقد جمع الله تعالى في « الحسن البصري » الأمور التي تكون منه الإنسان السوي ، المفكر ، الزاهد ، الداعي إلى الله على بصيرة .

وتتلخص في الأمور الآتية : -

أولاً : الوراثة : وفي هذا يقول « ابن سعد » في « الطبقات » - يصف الحسن من الناحية الخلقية - : « كان الحسن فصيحاً ، جميلاً ، وسيماً » .

ويقول ابن قتيبة في المعارف : « حدثني عبد الرحمن عن الأصمعي عن أبيه قال : « ما رأيت أعرض زندياً من الحسن كان عرضه شبراً ... » .

ثانياً : البيئة : والمقصود بها الأسرة التي عاش معها ، والجمهور الذي تربى في وسطه ، والحسن من هذه الناحية عاش مع والده « يسار » الذي كان يعمل في الشئون الزراعية ، وهذا ما يدعو الإنسان إلى الاعتقاد بأنه قد تربى من مصدر حلال وهو سبب من أسباب البركة التي حلت فيه .

وكانت أُمه بسبب اتصالها بأزواج النبي ﷺ على جانب من المعرفة الدينية ، وذلك لاتصالها بالبيئة العربية الخالصة في ذلك الوقت ، وميلها إلى ذكر القصص الوعظي ، حتى بعد أن رحلت إلى البصرة ، وبلغ من تأثير أُمه فيه أنه كان أحياناً يروي عن أُمه عن أُم سلمة (١) .

فإذا ما تركنا بيئته الخاصة وعرجنا على بيئته العامة نجد أنه قد تربى وسط الرعيل الأول الذين قال الله فيهم :

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد - ٧ ص ١١٤ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان - ١ ص ٢٢٨ .

(مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ،
تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ
مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ... الآية) (١) .

والذين قال عنهم صاحب الرسالة الخالدة : « لا تَسْبُوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي ، فَإِنْ أَحَدُكُمْ
لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مَا أَحَدُهُمْ وَلَا نَصِيفُهُ » (٢) .

قضى الحسن البصري مرحلة الطفولة والصبا في المدينة المنورة بين أصحاب النبي ﷺ ،
وأخذ يتردد على المسجد النبوي ، وفيه كان يرى ويسمع من بعض الصحابة - عليهم
رضوان الله تعالى - ونتيجة لذلك : حفظ القرآن الكريم ، والكثير من أحاديث النبي الكريم ،
وبعض أقوال الصحابة الذين نهلوا من معين النبوة الصافي .

وكان قد بلغ وهو بالمدينة الرابعة عشرة من عمره ، وتعلم الكتابة وضبط الحساب ، مما
أهله بعد ذلك أن يكون كاتباً للربيع بن زياد الحارثي والي « خراسان » ، وأحد فاتحيها
لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ولم يقتصر تردده على بيت الله تعالى لأخذ العلوم
والمعارف المختلفة عن أصحاب النبي ﷺ وهو في شبابه ، بل كان يتردد أيضاً مع أمه
في بيوت أزواج النبي ﷺ فكان يكتسب من هذا الفقه في الدين كالمسجد . وفي المدينة المنورة
شهد الحسن ما توقع فيه المسلمون من فتن مثيرة أدت إلى سفك الدماء ، حتى استشهد
بسببها الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » .

هذه الصورة الدامية انطبعت في ذهن « الحسن » مما جعله دائماً ينفر من الفتن مدة حياته ،
ومن يدري لعل هذه الصورة البشعة هي التي غرزت في نفسه عاملي الخوف ، والحزن
الذين لازماه طوال عمره . ومما يدل على شهوده مصرع الخليفة وهو بالمدينة قوله : « كنت
بالمدينة يوم قتل عثمان وكنت ابن أربع عشرة سنة » .

كذلك سمع دعوة « أبي ذر الغفاري » - رضي الله عنه - إلى توزيع أموال الأغنياء على

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري - ٤ - .

الفقراء ، مما كان له الأثر الكبير في تكوين شخصيته ، خاصة بعد أن انتقل من المدينة إلى البصرة (١) .

ويقول « الذهبي » في تاريخ الإسلام : « وقد سمع - أي الحسن - من عثمان وهو يخطب ، وشهد يوم الدار ورأى طلحة وعلياً ، وروى عن ابن عباس ، وابن عمر ، وجابر ابن عبد الله ، وخلق كثير من الصحابة - عليهم رضوان الله تعالى - » .

انتقال الحسن وأسرته إلى البصرة :

انتقل الحسن وأسرته إلى البصرة سنة ٣٦ هـ في ولاية « عثمان بن حنيف » من قبل أمير المؤمنين « علي بن أبي طالب » وهذا الانتقال كان لاعتبارات متعددة كالخين إلى الوطن ، لأن أسرته - كما عرفنا - جاءت من البصرة مع السبي ، وخروج الإمام « علي » من المدينة ، والتكسب ، إلى غير ذلك من الاعتبارات .

ومنطقة العراق في هذا الوقت كانت مركزاً للمناقشات والجدل ، كما كانت موطناً لمذنبات قديمة .

كان السريان قد انتشروا فيها ، وأنشؤا لهم مدارس قبل الإسلام ، وكانوا يدرسون فيها الآداب اليونانية .

وكان في العراق قبل الإسلام مذاهب نصرانية تتجادل في كثير من العقائد . وكان في الحيرة يونان مثقفون ، كما كان العراق في الإسلام ميداناً للفتن والحروب والتناحر المذهبي بين الشيعة والخوارج .

في ذلك المزدحم من الآراء والأفكار ، وفي ذلك المزيج من النحل والأهواء اكتملت للحسن رجولته ، والنفس القوية تستخلص غذاءها الروحي من كل الأفكار (٢) كالرجل القوي يستخلص من حسك السعدان غذاءه المادي ، فلا عجب إذا تغذت نفس « الحسن »

(١) النية والأمل المرتضى ، وتاريخ الإسلام ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ، والطبقات الكبرى لابن سعد - ص ٧٠ ص ١٥٧ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) من تاريخ الجدل . . للشيخ محمد أبو زهرة . طبع ونشر معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م .

من هذه الأفكار المتضاربة ، والآراء المتناحرة ، واستخلصت من بينها ما ينميها ويقويها ، والنفس القوية تستفيد من باطل الآراء كما تستفيد من صحيحها ، إذا عرفت ما في الباطل من دخل ، وما في ثناياه من خطل ، فيكون إدراكها للحق على بينة ويقين ، وليس قوياً في نفسه ذلك الذي يتحير في وسط الشبهات ، ومتنازع الأهواء والأفكار ، ولكن القوي في نفسه هو الذي يتخير مذهبه الحق وسط أعاصير الأهواء ، فلا يتطرق الشك إلى قلبه ، ولا يرد الاضطراب إلى نفسه ، بل لا يزيده اضطراب الآراء إلا يقيناً ، ولا تنازع الأفكار إلا تثبيتاً .

خصوصاً وأن المناهج العلمية في عهده أخذت تتميز ، فكان فقه العراق وعلى رأسه « عبد الله بن مسعود » ثم علقمة ، وإبراهيم النخعي ، وحamad بن أبي سليمان ، وعلى مائدة هؤلاء تربي أبو حنيفة النعمان ،

وفي المدينة المنورة كان الفقه الحجازي وعلى رأسه « عبد الله بن عمر » وسعيد بن المسيب ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وابن شهاب الزهري ، ومن مائدتهم تغذى الإمام مالك - رضي الله عنهم جميعاً - .

وهكذا أخذت المدارس الفقهية تتبين مناهجها في عصر الحسن ، وكلها يلتبس ينبوعه من علم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وما نقله أصحابه ، والاختلاف إنما هو في المنهج والتخريج .

في معتلج الآراء ، ومضطرب المذاهب استطاع « الحسن البصري » أن يتخذ له مذهباً يدين به في الدين ، آمن به حق الإيمان ، وأذعن له حق الإذعان ، وكان كالطود الأشم تصطدم الرياح ، فتبدد حوله ، وهو جاثم في مكانه ، يستخلص من تلك الفتن ما يدعم حجته ، وينير مهجته ، ويقوي به دعوته (١) .

حياته الأسرية واليومية :

إن أخلاق الإنسان دائماً تظهر أجلى ما تكون على حقيقتها في بيته وأهله ، فكثيراً ما يمثل

(١) المرجع السابق .

في مجتمعه مالا يعتقد ولا يفعله ، ومن أجل هذا يوصي المصطفى ﷺ أصحابه وأمته فيقول : « خياركم خياركم لنسائكم (١) » .

والحسن البصري كان من هذا الطراز الرفيع ، الذي أحسن العشرة مع أهله . تزوج - رحمه الله - من أصل غير عربي ، كما هو متبع في هذا الوقت غالباً من عدم تزويج العربية من غير العربي (٢) .

حتى أننا نجد « الحسن » حينما كان يحدث بينه وبين زوجته عراك يقول لها : يا علة ! ومعناها : نفي كونها عربية ، ويظهر من ذلك أن زوجته لم تكن على المستوى الذي يعيش معها كزوج ، لأنها كثيراً ما كانت تصطدم به في منهاج حياته (٣) .

ورزق الحسن بولدين : « سعيد » وبه كان يكنى ، و « عبد الله » كما رزق بنتا . وتصف بعض المصادر معاملة الحسن لزوج ابنته - حينما يزوره - قائلاً : « مرحباً بمن كفى المؤنة ، وستر العورة » ، ثم يتنحى له عن مكانه تكريماً له .

وولد للحسن غلام فقال بعض جلسائه : بارك الله لك في هبته ، وزادك من أحسن نعمته ، فقال الحسن : « الحمد لله على كل حسنة ، ونسأل الله الزيادة في كل نعمة ، ولا مرحباً بمن كنت عائلاً أنصبي ، وإن كنت غنياً أذهلني ، لا أرضى بسعي له سعي ، ولا بكدي له كداً ، حتى أشفق له من الفاقة بعد وفاتي ، وأنا في حال لا يصل إلى من غمه حزن ، ولا من فرحه سرور (٤) » .

وفي هذا الرد للحسن البصري على بعض جلسائه درس بليغ في كيفية استقبال النعم ومعرفتها على حقيقتها والشكر عليها .

(١) رواه ابن ماجه مرفوعاً عن عبد الله بن عمرو .

(٢) أودى ابن عون - تلميذ الحسن - من قاضي البصرة « بلال بن أبي بردة » حينما أراد أن يشد عن هذه القاعدة المعروفة آنذاك .

(٣) ، (٤) لسان العرب لابن منظور مادة « طبع » ، وتهذيب ابن عساكر ٣ ص ٣١٩ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ٧ ص ١٢٥ - ١٢٦ ، عيون الأخبار لابن قتيبة ٧ ص ٩٨ ، والبيان والتبيين للجاحظ ٢ ص ١٤٧ .

ويكفي في هذا المقام أن نذكر بعض الآيات الكريمة التي توافق روح الحسن ومزاجه

قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ .. الآية) (١)

وقال أيضاً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ . وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَنَّفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (٢) إلى آخر الآيات الدالة على ذلك .

وكان الحسن في حياته المعيشية كثير الشبه بأصحاب المصطفى ﷺ فكان يعيش مع أسرته عيش من ينتظر النعيم الدائم يوم القيامة ، وإذا أخذ العطاء من الدولة — الذي لا يفهم منه معنى الأجر — حجز لأسرته ما يسد الرمق الضروري ، ويسر العورة ويوزع الباقي على الفقراء والمحتاجين .

حتى نجد « الحسن » نفسه يقول : « كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدي إلى السقف (٣) » . هذا الوصف لبیت الرسول طبقه « الحسن » على نفسه ، فقد كان منزله — رحمه الله — وما يحتويه بقي فقط من برد الشتاء ، وحر الصيف ، وفي منتهى البساطة من حيث المبنى ، وما فيه من الأدوات ، التي تذكر بما كان عليه النبي الكريم . روى عن عبد الله بن عمر قال : « مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصاً ، فقال : ما هذا ؟ قلنا : خص لنا قد وهى فقال : أرى الأمر أعجل من ذلك (٤) » .

وقد بلغ من عظمة « الحسن » أنه كان يلزم أسرته بهذا الخلق الرفيع ، ويحملهم عليه ، بصورة ينذر وجودها أسوة بمن سبقه — خاصة عمر بن الخطاب — متمثلاً قول الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(١) المنافقون آية ٩ . (٢) التباين ١٤ - ١٥ .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي - ٤ ص ١٠٠ ، والإحياء للغزالي - ٤ ص ٢٣٦ .

(٤) رواه الترمذي وصححه ، وأبو داود ، وابن ماجه .

يذكر « حميد الطويل » عنه قال : خطب رجل إلى « الحسن » ابنته ، و كنت السفير بينهما فرضيه ، وأراد أن يزوجه فأثيت عليه ذات يوم وقلت : وأزيدك - يا أبا سعيد - أن له خمسين ألفاً . قال : أقلت : له خمسون ألفاً ؟ ما اجتمعت من حلال ! قلت : يا أبا سعيد ، إنه والله - ما علمت - لورع ، مسلم . فقال : « إن كان جمعها من حلال لقد ضمن بها على حق . لا يجري بيني وبينه صهر أبداً » ! .

وقضى الحسن - رحمه الله - معظم حياته بين بيته المتواضع - كما عرفنا - لا فراش ولا بساط ، ولا حصير ، إلا سرير مرمول - أي منسوج من السعف بالحبال - عليه (١) .

وكان كثير التردد على المسجد ، يؤدي ما عليه نحو الله تعالى من عبادات وتقرب إليه سبحانه ؛ ونحو نفسه من تعليم وتهذيب ، على يد أصحاب رسول الله ؛ ونحو الناس الذين كان يعيش بينهم ، خاصة وأن المنطقة التي كان يعيش فيها ليست بالمستوى العالي - كما يحب بعض الناس أن يسكن - وإنما كانت منطقة الفقراء والمحتاجين ، وكثيراً ما يطلبون منه الضروريات فلا يتقاعس أبداً ، ولا يحتقرهم ، بل كان يعمل على قضاء حوائجهم ، كما كان يعلمهم ويهذبهم . وكان - رحمه الله - يفهم معنى الحوار ويعمل به ولو كان هذا الحار على غير الإسلام ، وبالفعل كان له جار يهودي كثيراً ما يحسن صلته .

ولم يقتصر إشرافه على أسرته ، بل في معظم الأحوال نراه مشرفاً ومساعداً لأُسرة أخيه « سعيد » الذي مات قبله (٢) .

ومن عاداته في حياته اليومية : أنه كان يستريح وقت القيلولة ، ليستعين بها على القيام بالليل ، مقتدياً بقول النبي ﷺ : « قيلوا فإن الشياطين لا تقيل (٣) » .

وكان للحسن مجلسان : أحدهما في المسجد ، عاماً لكل من يريد التفقه في دينه ، فاسحاً صدره لجميع الأسئلة التي توجه إليه ، ولم يكن في مجلسه هذا مستبداً برأيه ، لا يدع الكلام لغيره ، بل على العكس كان متواضعاً في ذلك ، مما جعل تلميذه « واصل بن عطاء »

(١) محاضرات الراغب الأصفهاني ١ ص ١٥٤ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ٤ ص ١٠٤ .

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ٤ ص ١٠٣ ، وأمالى المرتضى ١ ص ١١١ ، والطبقات الكبرى ٧ ص ١٢٨ .

(٣) أخرجه الطبراني عن أنس مرفوعاً .

يرد على سؤال مرتكب الكبيرة الذي وجه إلى « الحسن » قبل أن يجيب « الحسن » على السؤال ،
مما حمّله أن يقول : « اعتزلنا واصل » (١) .

وتطوّر مجلس الحسن هذا في المسجد ، لدرجة أنه كان المقياس الذي توزن درجة
الثقافة الإسلامية في هذا الوقت ، وخير تعبير له - في نظري - ما قاله الدكتور « حموده
غرابة » في كتابه « الأشعري . . » : بعد أن تحدث عن الفرق المختلفة التي ظهرت بعد وفاة
الرسول ﷺ من خوارج وشيعة على مختلف أنواعها : قدرية ، وجهمية . . . قال : « فزاد
ذلك من حدة الجدال بين المسلمين ، ثم كان أن التقت هذه التيارات المختلفة جميعاً عند رجل
له مكانه في تاريخ الإسلام العقلي وهو « الحسن البصري » .

وثاني المجلسين في بيته مع بعض أصفياه من أهل الزهد والورع ، وكان يعني بهم
عناية خاصة ، حتى إن أهله كانوا يملون منهم ، لطول ما يجلسون معه ، ولكن سرعان
ما يبين لأهله أهميتهم وحبهم لهم ، فيصرفون النظر عنهم ويتركونه يتمتع بمجلسهم .
هذا المجلس بالمنزل كان جل الحديث فيه عن « الرقائق » (٢) . وإن سأله أحد من الناس عن
هذه الجلسة المنزلية ، التي يتحدث فيها عن الزهد والنسك مع إخوانه قال : « إنما خلونا مع
إخواننا نتذاكر » .

وكان - رحمه الله - كثيراً ما يختم مجلسه بهذا الدعاء :

« اللهم بري قلوبنا من الشرك والكبر والنفاق والرياء والسمعة والريبة والشك في
دينك يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك واجعل ديننا الإسلام القيم » (٣) .

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٤٨ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ .

والمراد بالرقائق يبينه ما قاله ابن الجوزي في كتابه « صيد الخاطر » : « رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث
لا يكاد يكفي في صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق ، والنظر في سير السلف الصالحين ، فأما مجرد العلم
بالحلال والحرام ، فليس له كبير عمل في رقة القلب ، وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث وأخبار
السلف الصالحين » .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ج ٤ ص ١٠٥ وما بعدها .

اشتراكه في الفتوحات ورجوعه إلى البصرة :

لم تكن كل حياة « الحسن البصري » في المدينة ، أو في البصرة فقط ، بل كان يرتحل عنهما كلما سنحت له الفرصة ، لأداء واجب من الواجبات ، كتأدية فريضة الحج ، والمساهمة في الفتوحات الإسلامية .

فقد ثبت اشتراكه في الفتوحات الشرقية مع « الأحنف بن قيس » أيام « معاوية بن أبي سفيان » وقد مكث الحسن مع عبد الرحمن بن سمرة في غزو « كابل » ، و « الاندقان » ، و « الاندنمان » و « زابلستان » قرابة ثلاث سنين .

وقد ولى عبد الرحمن سجستان سنة ٤٣ هـ وخرج معه أشراف الناس مثل : عبد الله بن خازم ، وقطرى بن الفجاءة ، والمهلب وغيرهم ، وشهد « الحسن » معه حصار « كابل » وفتحها ، وذكر « الحسن » أنهم في إحدى هذه الغزوات كانوا يأكلون لحوم الخيل (١) .

وفي سنة ٥١ هـ استعمل « الربيع بن زياد » على خراسان ، فذهب « الحسن البصري » معه كاتباً ، كما ذكرنا آنفاً (٢) .

واشتراك الحسن في هذه الغزوات أتاح له فرصة طيبة أبرزها أن تعرف على حياة الحرب كما عرف حياة السلم .

والمراجع التي بين أيدينا - فيما نعلم - لم تذكر لنا بالتفصيل ما هو دور « الحسن » في تلك الحروب ؟ وغالب الظن أن « الحسن » كان إماماً للكتائب المسلمة - إن صح هذا التعبير - يؤمهم في الصلاة ، ويحضهم على الجهاد ، وهذا ما يشبه في إيماننا إلى حد ما بالتوجيه المعنوي .

ولاشك أنه لو أحسن سير التوجيه المعنوي في الحيوش إلى ما يرضي الله ورسوله ، لتحركت كتائب الإيمان في قوة وشجاعة وثقة في النصر بإذن الله ، وفي هذه الغزوات أيضاً

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ص ٣ - ٩٩ .

قابل الكثير من أصحاب النبي ﷺ والفقهاء ، والشعراء وكان شجاعاً في هذه الحروب كما ذكر تلامذته .

كذلك استفاد من هذه الفتوحات معرفته الأكيدة بقيمة العلم في المجتمع خاصة الأجناس غير العربية التي كانت تجد من بعض العرب احتقاراً .

قال سالم بن أبي الجعد : « اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني ، فقلت : بأي شيء أحترق ؟ فلحترقت بالعلم ، فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم آذن له » ، وقال بعض الحكماء : « إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء . ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره » وإذا كان مقتل « عثمان » أثر فيه قبل ذلك فمساهمته في الفتوحات أثرت فيه أيضاً (١) .

وبعد هذه الفترة التي قضاه « الحسن » في الفتوحات رجع إلى البصرة ، وقد عزم في نفسه على تخليص المجتمع مما لحق به من فساد ينخر فيه ، وإنهماك في الدنيا كاد يؤدي إلى كارثة في الدين .

موقف الحسن من اشتراكه في الفتوحات والعودة إلى حلقة المسجد :

استفاد الحسن من اشتراكه في الفتوحات ، وعاد منها إلى مسجد البصرة بنفس جديدة ، وهمة عالية ، للوصول إلى الهدف المنشود ، الذي رسمه لنفسه في ظل الكتاب والسنة . ويبدأ عمله هذا بحلقات مسجد البصرة الجامع ، حيث التزود بالثقافات الدينية المختلفة ، التي اتجهت إليها نفسه ، وكانت من أهم الأسباب القوية المكونة لشخصيته .

أمام هذه الروح الوثابة يحاول أحد الباحثين المحدثين وضع تفسير لهمة الحسن العالية ، وعزيمته القوية بعد رجوعه إلى البصرة بقوله : « لعل الحسن قد أصيب بخيبة أمل في هذه الغزوات ، حين لمس الإجحاف الذي كان يلقاه الموالي أمثاله من جانب العرب أصحاب السيادة ، فأدرك أن مكانه الصحيح ليس في هذه الفتوحات ، وإنما هناك في حلقات مسجد البصرة ، وقد صح عزمه على أن يسلك الاتجاه الوحيد الذي تطمئن إليه نفسه ، ويرضى

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي - ص ٨ وما بعدها ، وتاريخ الإسلام للذهبي - ص ٩٩ .

مزاجه الديني ، والذي سلكه كثير من الموالي ، أملاً في أن يعوضوا به عن الضعة التي لحقتهم من جراء انتمائهم إلى العناصر غير العربية » (١) .

هذا التفسير من جانب الدكتور النص - في نظري - ليس بصواب ؛ ذلك أن الحسن البصري - رحمه الله - كان يعلم قيمة الجهاد في سبيل الله تعالى ومبلغ عظمة الشهادة في سبيله ، وهو الذي أخذ على نفسه العهد أن يعمل بما يقول ، فكيف يصاب بخيبة أمل في هذه الفتوحات ؟ ! مهما لمس الاجحاف الذي يلقاه الموالي أمثاله . . ولو صح هذا لما وصل « الحسن » إلى القمة في نظر الأمة كلها .

ولكن بماذا نفسر أو نعلل ما حدث ؟ .

في الواقع أن الحسن - فيما أعتقد - بثاقب فكره ، وضوء حكمته ، وتام إخلاصه لله رب العالمين - وجد أن الوقوف أمام أعداء الله تعالى لا يقتصر على الحرب في ميدان القتال فقط ، ولكن لابد من جيوش متعددة لإحراز النصر : جيش لميدان القتال ؛ وجيش للعمل الدائم لتجهيز ما يحتاجه الواقف أما العدو من طعام وشراب وثياب ومعدات ؛ وجيش لمحاربة الشائعات وإحباط المؤامرات التي ترمي إلى ضعف الروح المعنوية ، التي لولاها لما انتصر جيش أبداً .

والدليل على ذلك التاريخ والواقع ؛ فنحن مثلاً في معركتنا مع العدو الاسرائيلي ومن يسانده ؛ حينما أصبنا بنكسة فاضحة لم يكن عددنا قليلاً ، أو عدتنا ضعيفة ، وإنما كنا في أشد الحاجة إلى هذه الروح العالية ، التي تنساب في دماء الجنود ، فيصبحون بهذا كما يقول أحد الصالحين : « رهبان بالليل فرسان بالنهار » ومن الذي يبعث في هؤلاء الجنود - بل في الأمة كلها - هذه الروح العالية سوى الدعاة إلى الله المخلصين ، الذين تربوا على مائدة القرآن الكريم وهدى الرسول الكريم ؟ ! .

فإذا نظرنا بعمق لوجدنا أن من أهم الجيوش هذا الذي يحارب الأفكار الخبيثة ،

(١) الخطابة العربية في عصرها الذهبي للدكتور إحسان النص ص ٣٤٢ - ط ثانية - دار المعارف .

والآراء الوضيعة ، هذا بالإضافة إلى أن « الحسن » كان يميل بحكم نشأته وتربيته إلى العلم والمعرفة .

فالحسن البصري اختار أشق الأعمال في الحفاظ على الأمة الإسلامية ، وَمَنْ غير « الحسن » يصلح للقيام بهذه المهمة في هذا الوقت ، خاصة في البصرة ؟ ! وكأني بالحسن - رحمه الله - باشتراكه في الفتوحات الإسلامية أراد أن يضرب المثل للأمة في الجهاد ، لنشر الدعوة المحمدية ، وبأن العلماء الحاملين لكتاب الله وسنة رسوله لا يقتصرون على القول ، بل يقولون ويفعلون ، وهذا هو السر في استجابة الناس له ، وطاعتهم إياه .

وهذا الرد وغيره يرد به أيضاً على الدكتور إحسان عباس في كتابه عن « الحسن البصري » فقد ذكر رأياً يشابه رأي الدكتور النص السابق .

وبالنسبة لاحتقار الموالي من العرب فالرد على ذلك من وجهين :

الوجه الأول :

أن نزعة العداة والاحتقار التي كانت تظهر من العرب نحو العناصر الأعجمية لم تكن سائدة - غالباً - في الأوساط الدينية والعلمية ، فالرجل الذي كان يعرف من الموالي بصلاحه وتقواه ، أو بعلمه وأدبه ، كان ينال من جمهرة الشعب ومن الطبقة الحاكمة كل احترام وتقدير ، ويكفي أنه لما توفي إمامنا « الحسن البصري » خرجت البصرة كلها تشيع جنازته ، حتى تعطلت صلاة العصر لأول مرة بمسجدها الجامع ، إلى غير ذلك مما هو مبسوط في تراجم العلماء والصالحين من الموالي .

ولعل هذا - كما يقول أحد الباحثين (١) - يزيل التناقض الذي يبدو في بعض الكتب القديمة من أخبار تدل على احتقار الموالي في تلك الحقبة من الزمن ، وأخبار أخرى تدل على احترامهم .

والوجه الثاني : أن كثيراً من الموالي كانت تبدو منهم بوادر تبعث الشكوك والهواجس في نفوس الحكام الأمويين ، إذا كانوا يرون من بعضهم خروجاً عن المبادئ الإسلامية ،

(١) ، (٢) الموالي في العصر الأموي للأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار دار النيل للطباعة بالقاهرة .

ومحاولة للانتكاس والرجوع إلى ديانتهم القديمة ، وكانوا يرون من البعض الآخر نزعات قومية ، تميل إلى القضاء على السيادة العربية ، وتلمس الفرص لذلك ، وطالما أقضوا مضاجع الأمويين بالدعايات السرية ، والثورات المتعاقبة ، فأضاف هذا إلى سلوكهم عاملاً جديداً إلى العامل الأصلي في كراهية الموالي واحتقارهم ، وهو العصبية العربية ، وكان الأمويون من أجل هذا وذاك يقابلون العدوان بمثله أو أكثر ، وتبعاً لهذا كانت تنحدر منزلة الموالي وتسوء حالتهم ، ويلاقون من العرب ألواناً مختلفة من العنت والازدراء .

نظر « الحسن » إلى مجتمعه ليحدد طريقه في كيفية ربطه بالله تعالى بعد أن شذ الكثير منه عن الطريق السوي ؛ حيث وجد المجتمع يبرز فيه صنفان من الناس غالباً : صنف أقبلت عليه الدنيا بزيتها ، فأقبل هو الآخر عليها ، وأخذ منها بالنصيب الوافر وصدق الله العظيم إذ يقول :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَثَابِ) (١)
ومن العجيب أن هذا الصنف من الناس نسي المنعم تبارك وتعالى ، وأصبحت حياته مادية بحتة ، حتى أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

وفي مقابل هؤلاء الغارقين في بحار المادية الزائلة وجد صنفاً آخر ولو أنه كان قليل العدد إلا أنه قوي التأثير ، بسبب شكره لربه . قال عز من قائل :

(وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (٢)

هذا الصنف من البشر استطاع بفضل الله تعالى أن يقاوم هذا الإغراء ، وسلك في حياته مسلكاً يتفق مع المثل الأعلى ، الذي يسعى إلى تحقيقه . هؤلاء سموا « بالزهاد » فقام فريق منهم في وجه هذا التيار المادي الجارف ، وعمل على تعويق هذا الإقبال القوي على الملمات الفانية ، والمتع الدنياوية الزائلة .

(١) سورة آل عمران . الآية ١٤ .

(٢) سورة سبأ . الآية : ١٣ .

وبالطبع كان من هؤلاء الزهاد من تغالى في زهده لدرجة تبعدهم عن سماحة الإسلام ،
وجوهره الأصيل الصالح لكل زمان ومكان .

وبين هذه الأمواج المتلاطمة يقوم شيخ البصرة الكبير « الحسن البصري » بدعوته
المعتدلة إلى الزهد الحقيقي ، وسرعان ما وصل النداء من هذا الواعظ الشاب إلى القلوب
فهزها ، وإلى العقول فخطبها ، وإلى الأرواح فغذاها ، حتى أصبحت حلقة صاحب
« العمامة السوداء » لا تدانيها حلقة . ومن الأدلة على ذلك : حينما سئل الصحابي الحليل
أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، عن مسألة . قال : « سلوا مولانا الحسن ؛ إنا سمعنا وسمع ،
فحفظ ونسينا » (١) ، وقال هشام بن حسان : سمعت الحسن يقول : « والله ما أحد من
الناس بسط له في أمر من أمور دنياه فلم يخف أن يكون ذلك مكرأ به ، واستدراجاً له
إلا نقص ذلك من عمله ودينه وعقله ، ولا أحد أمسك الله الدنيا عنه ، ولم ير أن ذلك خيراً له
إلا نقص من عمله ، وبأن العجز في رأيه » . وكان يقول : « ما عجبت من شيء كعجبي
من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر ، وأيم الله إن حبها لمن أكبر الكبائر ، وهل
تشعبت الكبائر إلا من أجلها ؟ ! وهل عبدت الأصنام ، وعصى الرحمن إلا لحب الدنيا
وإيثارها ؟ ! » (٢) .

صلته بالحكام

موقف الحسن من الحجاج :

تولى الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية العراق ما بين عام ٧٥ ، ٩٥ هـ من قبل الخليفة
« عبد الملك بن مروان » بعد أن استشرى الفساد فيها ، وكان يشتهر بالفصاحة ، والبلاغة ،
والبطش ، والنكاية بمن يقف أمامه ؛ لهذا كان موقف « الحسن » منه في منتهى الدقة ، والحرص

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد - ص ٧٢ - ١٢٨ .

(٢) الحسن البصري لابن الجوزي ص ٣٧ - ٣٨ تحقيق الأستاذ حسن السندوني .

كان موقف الناصح الأمين ، الذي لا يبخل بالنصيحة مهما كانت الظروف والأحوال ، ولكن بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وبالمجادلة الحسنة ، علماً بأن « الحسن » لو أراد الفتوى صراحة ضد « الحجاج » لشبت ثورة عارمة بالبصرة ، لا يعلم مصيرها إلا الله ، ولهذا كان يرمز إلى المخرج من هذه المحنة التي أوجدها الحجاج ، أو خلقها الظرف السياسي يوم ذاك على الأصح ، فكان يندد - رحمه الله - بنوازع النفوس ، ويكشف عن الأعمال التي انحط إليها الناس ، وكأنه يريد بذلك أن يوضح لهم أن العلة إنما هي في أنفسهم ، وأن الله - عز وجل - ابتلاهم بسوء أعمالهم ، وكأنه يشير بذلك إلى قول الله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

وكان الحسن كثيراً ما ينصح الحجاج : تارة عن طريق التصريح ؛ وأخرى عن طريق التلميح ، كما كان يُعرض بالحجاج في خطبه ، منكرّاً عليه نفاقه ، ومخالفة قوله لعمله ، فيقول : « مازال النفاق مقموماً حتى عمّ هذا عمامة ، وقلد سيفاً » ، ويقول : « يتلو كتاب الله على لحم وجذام ، ويعظ وعظ الأزارقة ، ويبطش بطش الجبارين » ويقول : « اتقوا الله فإن عند الله حجاجين كثيراً » (١) .

وقد يتساءل بعض الناس : لماذا لم يبطش الحجاج بالحسن ؟

والجواب : من ناحية الحسن لم يعلن الثورة على الحجاج - بمعنى الانقلاب في العصر الحديث - لأنه كان يخاف الفتن ، هذا فضلاً عن الدماء التي سالت ظلماً وعدواناً على مرأى ومسمع منه ، فهو يخشى تكرار مثل هذه الأمور ، التي لا ضابط لها ، ولا يجب أن يكون سبباً في حدوثها .

وفي الوقت نفسه كان يؤدي واجب الدعوة إلى الله تعالى ، ويعمل على تربية المجتمع ليخرج منه الحاكم الصالح يتجلى ذلك في استفتاء بعض الناس له في قتال الطاغية ، ويقصدون « الحجاج » قائلين له : يا أبا سعيد ، ما تقول في قتال هذا الطاغية ؟ فقال الحسن : أرى ألا تقاتلوه ، فإنها إما أن تكون عقوبته من الله فما أنتم بـرآدئ عقوبته ، ثم قال كلمته

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧ ص ١١٣ - ١١٤ ، والبيان والتبيين للجاحظ ٣ ص ١٤٧ وما بعدها .

المشهورة : « يأيها الناس ، والله ما سلط الله عليكم الحجاج إلا عقوبة ، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ، ولكن عليكم بالسكينة والتضرع . . . » (١) .

ومن ناحية « الحجاج » كان يعتقد أنه لو بطش بالحسن لزاد ذلك من سحق المجتمع عليه ، ومن يدري لعل في ذلك ضياع حكمه .

كذلك كان لبقاً في تصرفاته ، صادق الفراسة . ومن ذلك ما قاله عبد الله بن ظبيان — الذي قتل « مصعب بن الزبير » — : « كنت يوماً واقفاً على باب الحجاج ، فإذا به قد خرج وحده ، وليس بالباب أحد ، فوقع في نفسي أن أقتله ، فنظر إلى وقال : هل لقيت يزيد ابن أبي مسلم — كاتب الحجاج — ؟ قلت : لا . قال : الله ، فإني وليتك على الرى معه ، فطمعت وكففت عنه ، وتوجهت إلى « يزيد » فلم أجد عنده شيئاً ، ففهمت أن « الحجاج » قال لي ذلك ، ليشغلني عما أردت به » إلى غير ذلك من الحوادث الدالة على حسن تدبير الحجاج ، ومعرفته كيف يفلت من المواقف الصعبة . ! !

كل هذا وغيره أدى — في نظري — إلى حسن الصلة بالحسن .

علاقة الحسن بالخليفة العادل عمر بن عبد العزيز :

ظل الوقت الذي تولى فيه « الحجاج بن يوسف الثقفي » ولاية العراق وما جاورها يسوده القلق والرعب والخوف ، لأن القوم لا يأمنون بطشه وظلمه ، لأي سبب من الأسباب ، كما استمر « الحسن البصري » أيضاً في خطبه اللاذعة ، ودعوته إلى الله تعالى على بصيرة ، دون أن يهاب سلطاناً أو يخشى في الحق لومة لائم .

وظل الناس على ذلك حتى انتهى عهد الحجاج ، وجاء عهد « سليمان بن عبد الملك » فتنفس الناس الصعداء ، وسجدوا لله شكراً على زوال عهد الحجاج ، الذي كتم أنفاسهم ردحاً من الزمن ، وربى فيهم الحب والذل .

ومما حجب الناس في « سليمان بن عبد الملك » أنه أقطع الناس الأرض الموات وأطلق

(١) الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٧ وما بعدها

الأسارى ، وأفرج عن المعتقلين ، وأحسن إلى الناس حتى قالوا : « سليمان مفتاح الخير ! » حتى رضي عنه الكثير من الصالحين في وقته ، وفي مقدمتهم « الحسن البصري » فكان - رحمه الله - لا يتعرض للخليفة « سليمان » ولا لعماله بدم ، كما كان يفعل مع من سبقه ، ومع هذا التقدير لسليمان نجد « الحسن » لم ينتهز الفرصة ككثير من الناس في أخذ شيء من الموات ، فقد كان زاهداً ورعاً (١) .

واستمر الحال على ذلك ما بين مد وجزر ، حتى جاء الخليفة العادل « عمر بن عبد العزيز » رضي الله عنه ، حيث وجد « الحسن » في هذا الحاكم العادل ضالته المنشودة ، كما رأى فيه تحقيق حلمه الكبير الذي كان يراوده ، وأعجب به كثيراً للأسباب الآتية :

أولاً : كان « عمر » - رضي الله عنه - على أدب إسلامي رفيع ، فبعد أن ولي خلافة المسلمين بالطريق المشروع خطبهم بكلام طيب ليس فيه التهديد ولا الوعيد ، ولا الضرب بيد من حديد على يد من تسول له نفسه الخروج عن حكمه ، كما كان يصدر عن بعض الحكام السابقين ، وإنما خطبه تدل على فهمه لنفسه وللناس ، ولنضرب بعض الأمثلة :

قال : « أيها الناس ، أصلحوا سرائركم تصلح لكم علائبتكم ، وأصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم ، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق في الموت ! ! » .

وقال : « أيها الناس ، إنه قد كان قبلي ولاية ، تجترون مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

وفي خطبة تالية يبين - رحمه الله - أسلوب العمل الذي سينهجه في سياسة الدولة ، فيقول : « أيها الناس ، من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقر بنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا على الخير ما لا نهتدي إليه ، ولا يغتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه (٢) » .

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري - ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم - ص ١١٥ .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه - ص ١٤٣ - ١٤٤ ، وتاريخ الإسلام السياسي . . . للدكتور حسن إبراهيم - ص ١٢٦ .

ثانياً : عمل عمر على رد الحقوق إلى أصحابها ، وأغلق الأبواب التي يأتي عن طريقها الظلم والطغيان ، وألغى كثيراً من العادات والتقاليد التي تنافي الإسلام . . إلى آخر ما فعل من الإصلاحات ، حتى لم يوجد فقير في عهده تعطى له الزكاة ، فكانوا يعتقدون منها الأرقاء (١) .

ثالثاً : قرن القول بالعمل ، فكان - رضي الله عنه - لا يقول قولاً إلا ويتبعه العمل ، ولهذا كان قدوة حسنة وأعاد بذلك عهد سلفه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - .

وعلى سبيل المثال كان يعين على البلاد الولاة الأكفاء المخلصين ، وأي عدوان على البلاد الإسلامية كان يحدث في عهده يقابله بالشدة حتى لا يعود المعتدون إلى مثلها . وبالنسبة للخارجين على الدولة من المسلمين ما كان يستعمل معهم العنف والبطش إلا بعد المناظرات الطويلة والمفتوحة ، لكي لا يكون لأحد منهم حجة (٢) .

هذه الأمور التي عرفناها عن الخليفة العادل « عمر بن عبد العزيز » جعلت « الحسن البصري » يقوم بدور إيجابي في بناء الدولة الإسلامية ، وقد أسهم - رحمه الله - مساهمة فعالة في توجيه الدولة إلى النظام المنشود الذي لا يختل أبداً إذا اتبع ، وبالفعل بدأ في إرسال عدد من الكتب والوصايا إلى المستول عن الدولة ، ومن أعظم هذه الرسائل والكتب التي أرسلها إليه كتاب يصف فيه الإمام العادل كما ينبغي ، ويعتبر هذا الكتاب كدستور لكل حاكم عادل ، يريد الخير لدينه ووطنه والإنسانية كلها .

وللفائدة سأذكر هذه الرسالة كاملة ، خاصة وأن الخليفة « عمر » هو الذي طلب من « الحسن » أن يصف له الإمام العادل حتى ينتفع بهذا الوصف فأرسل إليه الحسن قائلاً : « اعلم - يا أمير المؤمنين - : أن الله تعالى جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصف كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

« والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد

(١) ، (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ، وتاريخ الأمم والملوك للطبري - ٦ .

لها أطيب المراعي ، ويدودها عن مرائع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكتنفها من أذى الحر والقر .

« والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته .

« والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - كالأم الشفيقة ، البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ووضعت كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته .

« والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - وصيّ البتامي ، وخازن المساكين ، يربي صغارهم ، ويمون كبيرهم .

« والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بنفساده .

« والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلامه ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويربهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم .

« فلا تكن - يا أمير المؤمنين - فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق عياله .

« واذكر - يا أمير المؤمنين - الموت وما بعده ، وقلة أشياحك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفرع الأكبر .

« واعلم - يا أمير المؤمنين - أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك في قعره وحيداً فريداً ، فتزود له ما يصحبك :
(يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه) (١) .

« واذكر - يا أمير المؤمنين - إذا بعث من في القبور ، وحصل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

(١) سورة عبس . الآية : ٣٤ - ٣٦ .

« فالآن - يا أمير المؤمنين - وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم عباد الله بحكم الجاهلية ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولاذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين ينعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك .

« لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبال الموت ، وموقوف بين يدي الله ، في مجمع من الملائكة والنبين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحي القيوم .

« إني - يا أمير المؤمنين - وإن لم أبلغ بعظي ما بلغه أولو النهي من قبلي ، فلم آ لك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابي هذا كدائر حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريمة لما يرجو في ذلك له من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » (١) .

وروي أن « الحسن البصري » تولى القضاء في عهد « عمر » .

وهكذا شارك « الحسن » مشاركة إيجابية ، في بناء الدولة الإسلامية فرحاً مسروراً بخلافة الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز .

رحلته إلى بيت الله الحرام :

في أواخر حياة الخليفة الثقي « عمر بن عبد العزيز » أدى « الحسن البصري » فريضة الحج ، وكان قد حج في أول عمره مرة قبل ذلك ، وكان إذا ذهب إلى مكة في رحلته إلى بيت الله الحرام يجتمع عليه كثير من الناس ، فلم يجد بداً من الحديث إليهم .

وبينما كان « الحسن » يوماً عند الحجر ، يحدث الناس ويقص عليهم ما يفيض عليه مولاه من المواعظ والعبر ، وإذا بعلي بن الحسين - المشهور بعلي زين العابدين - يجيء إليه ، فقال له : أترضى يا حسن نفسك للموت ؟ قال : لا . قال : فعملك للحساب ؟ قال : لا . قال : فم دار للعمل غير هذه الدار ؟ قال : لا . قال : فله معاذ غير هذا البيت ؟ قال : لا .

(٢) الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٦ وما بعدها ، والمقد الفريد لابن عبد ربه - ص ٤٩ .

قال : فلم تشغل الناس عن التطواف ؟ ! (١) .

مع الحسن في أيامه الأخيرة :

ظل « الحسن البصري » مستمراً في تبليغ الرسالة ، وتأدية الأمانة طول حياته حتى في أيامه الأخيرة - زمن الشيخوخة وما يتعلق بها - .

كما استمرت علاقته بالولاية ، من حيث النصح والإرشاد ، وجمع الأمة على كلمة سواء ، وكان يؤدي واجبه نحو الراعي بالنصيحة الخالصة ، ونحو الرعية بمشاركتهم في البأساء والضراء ، فكان يحضر الحنازة معهم راكباً الحمار لعدم استطاعته السير معهم .

وبسبب هذا الضعف والشيخوخة يرى بعض العلماء : أن بعض الفتاوي التي كانت تصدر من « الحسن » في هذا السن المتأخرة من حياته كانت تتأثر بما ذكرنا ، ويمثلون لذلك بفتواه عن عدم قتل الحر بالعبد ناسياً حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « من قتل عبده قتلناه » (٢) .

كما تذكر بعض الروايات : أنه حينما قرب أجله طلب من خادمه أن تسجر التنور ، وكانت لديه صحف وكتب فأمر بها جميعاً فأحرقت ، غير صحيفة واحدة ظلت في حوزة ابنه ، حتى استعارها منه « مسلم بن حصين الباهلي » . ولا ندري لماذا فعل بكتبه هكذا ؟ علماً بأنه كان حريصاً على انتفاع المسلمين بخبراته وآثاره (٣) .

ومن يدري ؟ لعل « الحسن » لشدة ورعه وتقواه ، شعر بأن شيئاً في كتبه وصحفه لا يوافق كتاب الله وسنة رسوله ، فكأنه يريد بذلك أن يبريء نفسه أمام الله تعالى أنه لم يترك شيئاً يسجل عليه قد يكون فيه شيء من عدم رضا المولى تبارك وتعالى .

(١) أمالي المرتضى - القسم الأول ص ١٦٢ - ١٦٤ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ص ٨ ص ٣٥ وما بعدها .

(٣) (٤) ، (٥) الحسن البصري لابن الجوزي ص ١٩ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ص ٧ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ص ٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ص ٤ ص ١٠٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى العربية - المجلد السابع - ترجمة « الحسن البصري » .

وعلى كل فقد ترك الحسن - رحمه الله - تلاميذه يحملون علمه وفقهه ويبلغونه إلى الناس .

كذلك كان يزودهم بالنصيحة ، لكثرة الناس حوله ، ولم ينس الوصية الأخيرة التي يجب أن يتذكرها كل مسلم . دعا الحسن بمن يكتبها . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن الحسن - عبد الله وابن أمته يشهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . من لقي الله بها - صادقاً لسانه ، مخلصاً قلبه - أدخله الله الجنة » ثم قال : « سمعت معاذاً يقول ذلك ، ويوصي به أهله ، ثم قال معاذ : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك ويوصي به أهله » (٤) .

وأخذت نهاية الحسن تقرب رويداً رويداً ، والمرض يشتد به حتى وصل إلى حالة لم يستطع أن يقول فيها إلا الاسترجاع - كما يقول ابنه - والجميع يلتفت إليه في رعدة وخشية من هول الموقف .

وفي ليلة الجمعة في مستهل شهر رجب من عام ١١٠ هـ (١٠ أكتوبر ٧٢٨ م) أسلم الروح إلى خالقها ، وصلى عليه عقب صلاة الجمعة ، وحزن الناس عليه حزناً شديداً حتى إن صلاة العصر لم تقم يومئذ في جامع البصرة ، وذلك لأن الناس تبعوا جنازته ، وهو أمر لم يحدث قبل ، منذ أن جاء الإسلام إلى هذا المكان (٥) .